التهويلية المصطنعة لدى الصهيونية كأيديولوجيا ونظام هدّامين حاولت كل جهدها ـ ونجحت الى حد كبير ـ في قلب الأمور على أعقابها، بعد أن جعلت من « معاناتها » المهولة (بشد الواو) والمصطنعة معاناة « انسانية » و « طبيعية » وقد اثبتت روايتي العكس تماماً عن طريق ابراز انسانية وطبيعية معاناة الفلسطينيين ، على مستوى التطور التاريخي والاجتماعي للقضية ، وعلى مستوى تطور المصطلح اللغوي أيضاً الذي يصرّ عليه ، ومن هذه الناحية فقط ، الدكتور حسام .

ثالثاً : يستنتج الناقد أنه : « ما دامت هذه حال الطرفين ، فإن النقيض ليس مما يحل بسهولة لأنه يحمل كل ترسبات الماضي والحاضر للطرفين اللذين تزيدهما تجربة الصراع تعقيداً وعناداً وأصراراً وتوجساً . وههنا المعضلة التي تبرزها الرواية ابرازاً جريئاً ، ولكنها تخرج منها بحل مبسط جداً ربما لا يستند الى كل التحليلات القوية في صلب الرواية (امتشاق البندقية الى جانب الطبقة العاملة) » .

وهنا أجيب بتأن وصبر أن امتشاق البندقية ، هذا الفعل الثوري الهائل الذي لا يمكن لامرىء أن يتجاهل عظمته وأهميته كأعلى أشكال النضال ، والى جانب الطبقة العاملة ، أي الى جانب صاحب المصلحة الأولى في الحركة التحررية ، والكفيل الأوحد بالحفاظ على امتشاق البندقية ؛ هذا الفعل الثوري الهائل لا بد من رؤيته كحل ولكن أيضاً كوسيلة ـ بالنسبة اخصوصية القضية الفلسطينية ـ وليس كحل أحادي رومانطيقي . لا بد من رؤيته كحل مرتبط بجملة من العوامل والأهداف السياسية والاجتماعية والثقافية ، وليس كحل منعزل ومفرغ من مضمونه الشامل لكل أبعاد الصراع ما بين الفلسطيني والصهيوني ومعه الاستعمار والرجعية من جهة ، وما بين الماضي والحاضر من جهة أخرى ، وكمؤشر نحو المستقبل الذي فيه سيتحقق ـ بواسطة البندقية الآن أو بواسطة البندقية والصراع الطبقي في وقت لاحق ـ نزع اليهودي من صهيونيته واعادته الى انسانيته المفقودة .

صحيح انه لم « ترد تجربة الثورة الفلسطينية في الرواية إلا بشكل تلميحات » مثلما يقول الدكتور حسام ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون البندقية ، وحسب منطق الرواية التطوري الداخلي والموازي للواقع ، أهم هذه التلميحات ، بل هي الأهم ، والتي ، على عكس ما يقوله الدكتور حسام ، الأكثر جوهرية .

لا ، ليس من حقك يا صديقي الدكتور حسام ، أن تعيد صياغة « النقيض » حسب مقاييسك الخاصة بك وبرؤيتك ، وليس من حقك أيضاً أن تقحم الرواية والتاريخ الذي **تمثلته على طريقتها** ، وتقحمني ، من خلال هذه المقاييس الخاصة وتلك الرؤية التي تقود خطواتك النقدية أنت ، ولكن ، من حق الرواية عليك ، وكل انتاج أدبي آخر ، والفن عموماً ، أن تتركه يتشكل حسب رؤيته هو ، وبالصيغة الفنية التي تناسبه ، والعلاقة الجدلية الهامة التي من العادة ان تربط الناقد بالمنقود لا تنقُض المسافة القائمة بينهما ، ولا تنفي تمايز فكر الناقد وفكر المنقود ، ولكنها تنفي بشكل قاطع « التبني » الأخلاقي للنص ، وحصره في حالتي « الانصاف » أو « عدمه » ، حتى لو أتى الدكتور حسام ببيتي شعر جميلين لأبي تمام تدعيماً ، « منهجياً » لنقده .